مجلة المجمع العلمي

اللغة هُوية الأمة

الدكتور أحمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي ــ بغداد

الملخص :

حظيت اللغة العربية في هذا العصر باهتمام بالغ ، فما تزال المجامع اللغوية تعمل ، وما تزال البحوث والدراسات تنشر ، وما تزا ل المؤتمرات تعقد ، لإظهار مزاياها وسبل تنميتها وإغنائها بما يكفل استيعابها المستجدات ، لتظل نابضة بالحياة كما كانت في عهود الازدهار .

وكان للجهود التي بذلت أَثر في جوانب كثيرة من جوانب لغة الضاد ، فوضعت المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، واستعمل بعضها ، وأهمل بعضها الآخر ، لأن كل ما أوصي به أو قرر لم يقترن بواجب التنفيذ ، ومن هنا أكدت هذه الورقة أمرين لابد من تحقيقهما وهما :

1- التشريع اللغوي : أي صدور قوانين للحفاظ على سلامة اللغة العربية وتنميتها ، ولابد لهذه القوانين من تأسيس مجالس وهيئات عليا لتشرف على تنفيذ القوانين ومتابعة شؤون اللغة في جميع مناحي الحياة .

2- التعريب وبه تجري اللغة على كل لسان ، ويتيسر للمتلقين فهم ما يسمعون ويقرؤون ، ويسهل على الطلبة فهم ما يدرسون .

وهذان ركنان أساسيان في كيفية إعلاء شأن اللغة العربية ، وبدونهما لن يتحقق ذلك كما يدل الواقع العربي الراهن ، ومن أجل هذا كله كانت الدعوة الى هذين الركنين الأساسيين لتظل العربية لسان الأمة المعبر عن وحدتها وسيادتها، ولغة الآداب والعلوم والفنون .

(1)

اهتم العرب بلغتهم منذ القديم فهي عنوان هويتهم ، ورمز وجودهم، وازداد اهتمامهم بها بعد نزول القرآن الكريم ، وظهرت الكتب الكثيرة في النحو ، والمعاجم العامة ، ومعاجم المعاني والمصطلحات العلمية ، والألفاظ الحضارية ، وكتب التصحيح اللغوي وغيرها مما يتصل بأصول العربية .

حفل القرن العشرون بنهضة لغوية بفضل علماء اللغة ، والمجامع اللغوية والعلمية ، والجامعات ووسائل الاعلام وحركة التعريب والتأليف في الدراسات الانسانية والعلمية ، ونزعة الابداع الفني والأدبي .

كل هذا يدل على اهتمام العرب المعاصرين بلغتهم وهم يحيون نهضة حديثة تقتضي مواكبة التطور العلمي والتقني مما يدفعهم إلى بذل جهد أعظم بعد أن بدأت الحركات الهدامة تذر بقرنيها ، وأخذت أصوات هنا وهنا ترتفع مزينة الأخذ باللغة الأجنبية لأنها لغة الحضارة والتقدم العلمي ، وهو ما شهده مطلع القرن العشرين من دعوات ضالة ظهرت في بعض أقطار الوطن العربي .

إن عودة هذه الأصوات جعلت المؤمن بأمته وهويتها يخشى على لغته ، ويدعو إلى الحفاظ على سلامتها ونقائها ونمائها ، واستيعابها كل جديد.

(2)

شهدت اللغة العربية في القرن العشرين نهضة تجلت في نموها وازدهارها بفضل وسائل نموها كالاشتقاق ، والقياس ، والمجاز، والوضع ، وبفضل جهود المجامع اللغوية ، والمؤسسات العلمية ، والعلماء ، والمفكرين ، والأدباء ، والاعلاميين وغيرهم ممن تعنيهم هويتهم القومية .

وعلى الرغم من هذا كله فلابد للجهود المثمرة أن تستمر ، وأول ما يفتح السبيل ويحقق الأهداف صدور قوانين للغة العربية ليستمر الباحثون في بذل جهودهم للعناية بها وتنميتها ، وهذا يقتضي إصدار تشريع لغوي يرسم السبيل ويوجب الالتزام باللغة وإظهار دورها في الحياة العامة ، وإتخاذها لغة الآداب والعلوم والفنون .

وكان العراق قد اصدر عام 1977م (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) وحددت مواده ما يستوجب العمل ، إذ جاء فيه :

1- إلتزام الوزارات ومايتبعها من الدوائر الرسمية وشبه الرسمية ، والمؤسسات والمصالح والشركات العامة والجمعيات والنقابات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية ، واعتمادها في وثائقها ، ومعاملاتها .

2- اعتماد العربية لغة التعليم في جميع مراحله.

3- التزام مؤسسات النشر والاعلام بالعناية باللغة العربية ألفاظا ، وتراكيب ، ونطقا ، وكتابة ، وتيسيرها للجماهير ، وتمكينهم من فهمها.

4- أن تحرر باللغة العربية الوثائق ، والمذكرات ، والمكاتبات ، والسجلات ، والمحاضر ، والعقود ، واللافتات ، وأسماء الشركات ، والعلامات ، والبيانات التجارية ، وبراءات الاختراع ونحوها .

وفرض القانون عقوبة على من يخالف مواده من موظفي الدولة خاصة ، والمواطنين عامة .

وألزمت الوزارات بإنشاء أجهزة لها تعنى بسلامة اللغة العربية في وثائقها ، ومعاملاتها بما يكفل تطبيق القانون .

وصدر في سنة 1983 (قانون الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) لتكون هذه الهيئة مسؤولة عن متابعة تنفيذ القانون ، وتسعى إلى :

1- العناية باللغة العربية من جميع الوجوه .

2- تيسير استعمالها في الأغراض كافة ، وفي الشؤون العلمية بوجه خاص .

3- المحافظة على أصالة اللغة العربية وسلامتها من الأخطاء وخلوها من الألفاظ العامية والأجنبية .

وتتولى الهيئة :

1- الرقابة والاشراف على تنفيذ (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية).

2- اقتراح مشروعات القوانين ، والأنظمة المتعلقة بشؤون اللغة العربية .

3- وضع تقرير سنوي يرفع إلى رئاسة الدولة عن نتائج تطبيق التشريعات المتعلقة بشؤون اللغة العربية .

4- المشاركة في المؤتمرات ، وعقد الندوات ، وتأليف لجان لدراسة الموضوعات المتعلقة باللغة العربية .

وخطت الجزائر خطوة كبيرة في رعاية لغة الضاد ، والعناية بها ، ففي عام (1411هـ - 1991م) أصدرت (قانون تعميم استعمال اللغة العربية) . وأصدرت سنة 1998 أمرا يتمم هذا القانون ، وفي السنة نفسها أصدرت مرسوما رئاسيا يتضمن صلاحيات (المجلس الأعلى للغة العربية) وعلى هذا الأساس نهض المجلس بمهامه التي لاتختلف كثيرا عن مهام (الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) في العراق .

إن إصدار قوانين في الأقطار العربية، وتأسيس مجالس أو هيئات عليا تنفذ القوانين ضرورة يقتضيها الوضع الراهن الذي بدأت فيه العولمة تسلب الشعوب كيانها وتطمس هويتها المتمثلة باللغة ، والعربية هي لغة القرآن الكريم والفكر جديرة بالرعاية والاهتمام، والحفاظ عليها، والسعي إلى تنميتها لتستوعب المستجدات. ولا يتقاطع هذا مع المجامع اللغوية والعلمية العربية واتحادها، لأنها جميعها تسعى إلى تحقيق أهداف واحدة وهي العناية باللغة العربية، والحفاظ على سلامتها، وتنميتها، إذ نصت المادة التاسعة من قانون (الحفاظ على سلامة اللغة العربية) على : "يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية، وعلى الأجهزة المعنية الرجوع إليه بشأنها" ، ونصت المادة

الخامسة من قانون الهيئة على "تتعاون الهيئة مع المجمع العلمي العراقي على تحقيق أهدافها وتستعين به في المهمات الضرورية لذلك" .

(3)

لايقف الأمر عند هذا، فالعربية ــ وهي لغة القرآن الكريم ، والحضارة ــ لابد من أن تأخذ دورها بين لغات العالم ، وهذا يدعو إلى تأسيس (منظمة دولية للغة العربية) على غرار (الفرنكفونية) التي نشطت في السنوات الأخيرة ، وأخذت تنشر اللغة الفرنسية في العالم ، وتقدم الجوائز السنية لمن يكتب بها من غير الفرنسيين.

تقوم المنظمة العربية بوضع الخطط الكفيلة بالحفاظ على لغة الضاد ، ونشرها في العالم ، وأن يكون لها سلطان لتحقق أهدافها ، وأن تعمل بجد وإخلاص كما تعمل الفرنكفونية على الساحة الدولية ، وهذه دعوة أطلقتها في شهر نيسان من عام 2002م في الكلمة التي ألقيتها نيابة عن المشاركين في جلسة افتتاح (مؤتمر اللغة العربية أمام تحديات العولمة) الذي عقده في بيروت (معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية) وما اقترحته في بحثي (اللغة العربية وتحديات العولمة) الذي قدمته في ندوة (قضايا اللغة العربية في عصر الحوسبة والعولمة) التي عقدت في مجمع اللغة العربية الأردني في أيلول سنة 2002م بدعوة من (اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية) وما ذكرته في بحثي (التشريع اللغوي) الذي قدمته في (المؤتمر الرابع) لمجمع اللغة العربية بدمشق في تشرين الثاني سنة 2005م .

وكان (معهد الدعوة الجامعي للدراسات الاسلامية) قد أقر في مؤتمره الذي عقد في بيروت في نيسان 2002م تأسيس (مجلس عالمي للغة العربية وتنميتها) ، ووضع مشروع النظام الأساسي الذي شاركت في وضعه ، واطلع على النظام العماد أميل لحود ــ رئيس الجمهورية اللبنانية السابق ــ وقال في رسالته التي وجهها إلى رئيس المعهد ــ الدكتور عبد الناصر جبري ــ في العشرين من تشرين الثاني سنة 2002م :

"**لقد اطلعت بإمعان على مشروع (نظام المجلس التأسيسي لرعاية اللغة العربية وتنميتها) وقد رغبتم في خلال إطلاعنا عليه أن تحصلوا على إشارات بهذا الخصوص .**

إننا نهنئكم على جهودكم في إظهار لغتنا العربية ، لا لغة الشعر والمنطق فحسب ، بل لغة العلم والتطور والحضارة ، وما رغبتكم في إنشاء مجلس عالمي لرعاية اللغة العربية وتنميتها إلا تلبية لهاجس التفوق الذي تبثه فينا جماليات هذه اللغة وعبقريتها" .

وعززت هذه الدعوة توصية (ندوة التربية) التي عقدت في (باريس) سنة 2005م ، وشاركت فيها (المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة) و (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) و (جمعية الدعوة الاسلامية العلمية) ، جاء فيها : "إنشاء هيئة عالمية للغة العربية تكون إطارا جامعا للدول والمجتمعات الناطقة باللغة العربية ، وجهازا متخصصا بخدمة لغة الضاد ، ويعمل على تيسير تعليمها، والسهر على تطويرها ، وتوسيع دائرة انتشارها".

وبدأ (المجلس العالمي للغة العربية) نشاطه في بيروت ، وعقد مؤتمرات تتعلق بشؤون العربية ، ولكن ليس هذا ما دعوت إليه وإنما دعوتُ إلى إنشاء (منظمة دولية للغة العربية) على غرار الفرنكفونية ترتبط بجامعة الدول العربية على غرار المنظمات المرتبطة بها، ويوضع لها نظام يحدد أهدافها وآفاق أعمالها ، أو ترتبط بمنظمة التعاون الاسلامي (منظمة المؤتمر الاسلامي) لتكون عربية إسلامية لما لهذه المنظمة من امتداد في الوطن العربي والعالم الاسلامي ، ومن تأثير عظيم .

(4)

هذا هو الركن الأساسي الأول في "كيفية إعلاء شأن اللغة العربية لدعم قيم الهوية والانتماء ، وتعزيز دورها كمكون من مكونات الثقافة العربية وشؤون الحياة المختلفة".

والركن الأساسي الآخر تعميم استعمال اللغة العربية ، ومن أول ذلك التعليم بها في مراحل الدراسة كافة ، وهو ما دعا إليه المؤمنون بأمتهم العربية ولغتها وهويتها ، ولقيت دعوتهم استجابة في الوطن العربي ، إلا أن التعريب الذي عقدت له مؤتمرات كثيرة في الرباط ، وطرابلس ، وبيروت ، ودمشق ، وبغداد ، وعمان وغيرها مايزال بين مد وجزر ، لأن تلك المؤتمرات لاتملك سلطة التنفيذ ، وقد قال النبي العربي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ " مَنْ يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن" أي : من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن يكفه مخافة القرآن والله تعالى ، وصدور تشريع لغوي يقضي بالتزام التعريب .

وكنت قد أصدرت سنة 1395هـ ـ 1975م كتاب (دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات) وأقمته على استفتاء عدد من أساتذة العلوم الصرفة ، والعلوم التطبيقية، واتضح أن أكثرهم يفضلون تدريس العلوم باللغة العربية ، لأنها اللغة الأم التي توصل العلم إلى المتلقي بسهولة ويسر ، وهو ما مارسوه في الجامعة ، وما أكدته الدراسات التربوية ونتائج التعليم بها ، وما ثَبتَ من قصور في التعلم باللغة الأجنبية كما تدل عليه مؤشرات الامتحان ومستوى الخريجين .

وهذه مسألة أدركها المسؤولون والتربويون ، ففي (14 آذار سنة 1938م) رفع الدكتور محمد فاضل الجمالي ـ مدير التدريس والتربية العام يومذاك ـ تقريرا إلى وزير المعارف (التربية) العراقي جاء فيه :

"**عدم اتقان الطلاب اللغة الانكليزية يجعل دراستهم عقيمة لاسيما والكتب كلها انكليزية ، والمحاضرون معظمهم انكليز ، وقد حدث أن رأيت أحد الطلاب المتخرجين لم يستطع قراءة وفهم الكتاب الذي درسه في كلية الطب ، وفي هذا خطر على الأرواح لايمكن أن يقدر**".

والخطر على الأرواح في هذه الأيام أعظم مما ذكره الدكتور الجمالي قبل عقود من الزمان .

فالتعريب أو التعليم باللغة العربية في مراحل الدراسة كافة ، قدر الأمة العربية لأنه :

1- يحقق الهوية العربية .

2- يؤكد الاستقلال ، والعزة الوطنية والقومية .

3- ييسر التعلم .

4- يحقق نمو اللغة العربية .

5- يؤكد استعمال العربية في شؤون الحياة المختلفة .

6- يحقق للعربية العالمية لتأخذ دورها في التقدم والازدهار بين لغات العالم .

ويعرف هذا كل من عاش في ظل التعريب ، وما التزمت به بعض الدول العربية إذ أثبت التعليم بالعربية تفوق الخريجين عند إكمال دراساتهم العليا في الدول الأجنبية المختلفة التي أطل عليها الوطن العربي في العقود الأخيرة بعد أن كاد يتحرر من سيطرة الدول التي لم تسمح له بالاتصال بغيرها ، كالصين والاتحاد السوفيتي ــ سابقا ــ والمانية وبعض دول أوربة الشرقية . ستظل اللغة العربية كما هي إن لم تكن لغة التعليم ، وتستعمل في شؤون الحياة المختلفة ، ولايخشى عليها ؛ لأنها لغة القرآن الكريم ، ولغة مئات الملايين من العرب والمسلمين ، ولكن رعايتها والحفاظ على سلامتها والسعي إلى تنميتها يبقيها نابضة بالحياة .

وللمجامع اللغوية والعلمية العربية ، والمؤسسات العلمية ، والثقافية ، والاعلامية دور مهم في العناية باللغة العربية ، فقد نصت قوانين المجامع على الاهتمام بها وتنميتها ، كما نصت قوانين معظم الجامعات العربية على أنها لغة التعليم ، ولكن "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن".

(5)

إِن أهم ما يعزز اللغة العربية وينميها لتستوعب المستجدات :

1- رعاية المسؤولين لها .

2- الاعتزاز بها لأنها هوية الأمة .

3- استعمالها في شؤون الحياة العامة .

4- نشر الوعي اللغوي .

5- الكتابة بها تأليفا وإبداعا .

6- تجنب استعمال العامية في وسائل الاعلام .

7- إصدار تشريع لغوي يحافظ على سلامتها .

8- إنشاء مجالس وهيئات عليا لتنفيذ التشريع اللغوي .

9- إنشاء (منظمة دولية للغة العربية) ، تكون لها منبرا في الدول الأجنبية .

10- التعليم بها في المراحل الدراسية كافة، وهو من أهم ما يعلي من شأنها ، فضلا عن التشريع اللغوي الذي هو أساسي وبغيرهما لايمكن أن تكون العربية هوية الأمة ، وسبيل توحدها ، ورمز استقلالها وعزتها.

وقد أثبت الواقع العربي الراهن أن كل الدعوات الجادة وغير الجادة التي نادت بالتعريب ، وأن كل المؤتمرات التي عقدت من أجل ذلك

لم تثمر لعدم وجود تشريع لغوي يلزم التعريب، وينظم أعماله ، ويحدد مهامه ، ويرسم سبيل تحقيقه ، وستبقى الدعوات والمؤتمرات بدون ذلك صرخة في واد سحيق .

إن اللغة هوية الأمة ورمز استقلالها وسيادتها ، وعنوان وحدتها ، ومرآة ثقافتها ، وإن أول ما تسعى اليه العولمة سلب هذه الهوية وذوبان الأمة في غيرها ، وهذا ما سعى اليه بعض المستشرقين والعرب منذ أوائل القرن العشرين ، ولكن أصالة اللغة العربية ، وإخلاص المؤمنين لها ، ردّت الدعوات الضالة إلى نحور أصحابها، ولكنها لم توأد، وستظل تنغر في صدور أعداء الأمة ولغتها إلى ما شاء الله ، إن لم تظل جذوة الحرص عليها متقدة ، ويظل أولو الأمر رعاتها ، ويسعى إلى تنميتها أبناء الأمة المخلصون .